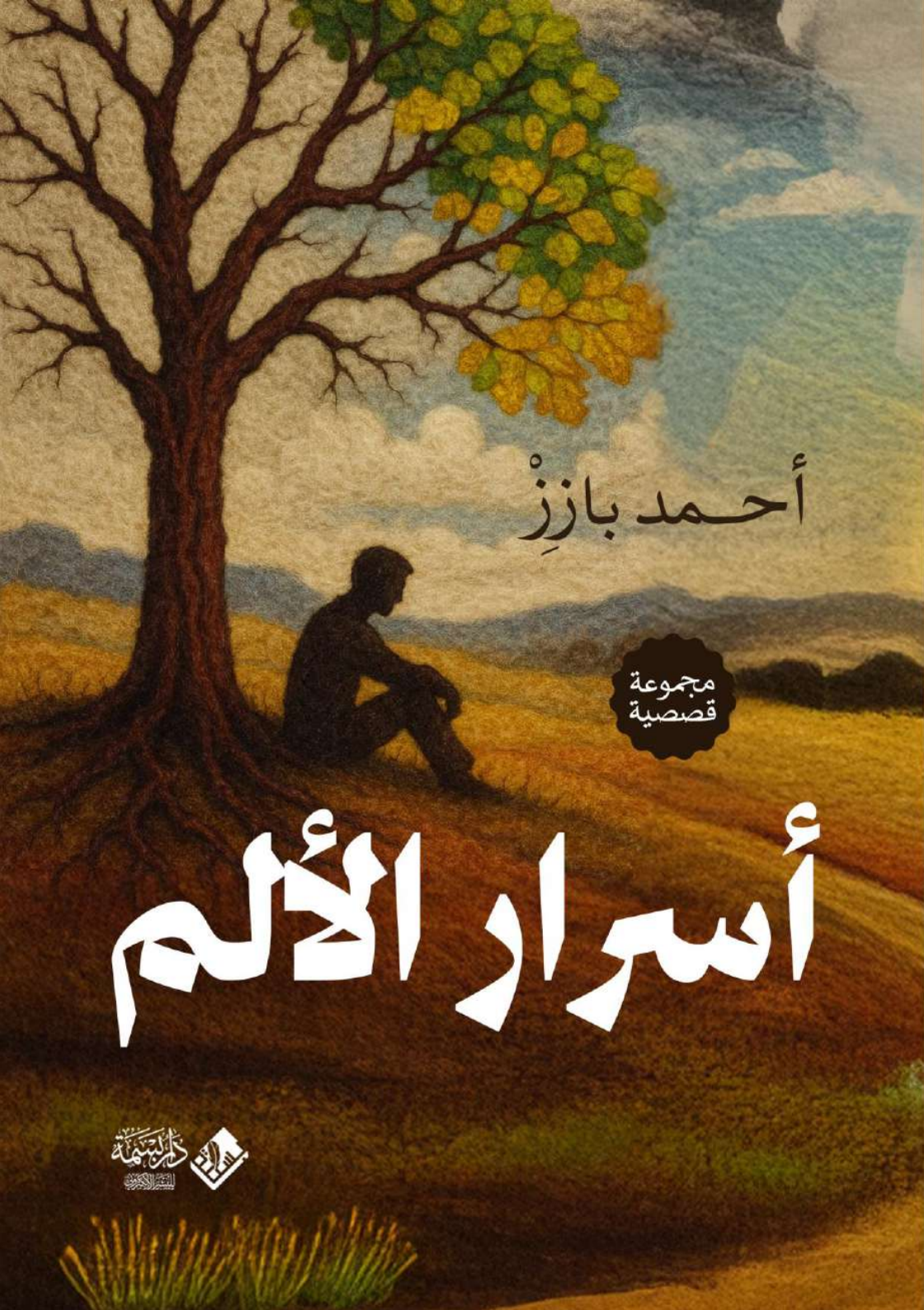
أحمد بازِزْ
مجموعة قصصية
أسرار الألم
دار النسمة

أسرار الألم

اسم الكتاب: أسرار الألم
اسم الكاتب: أحمد بازِزْ
نوع الــعمل: مجموعة قصصية
الرقم الدولي EBIN: 16-1-381-250603
الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني
الطبعة الأولى: 2025م / 1446هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934
داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)
Darbassma1@gmail.com
المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

أسرار الألم

مجموعة قصصية

أحمد بازز

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء:

إلى أرواح الشهداء الذين قضوا نَحْبَهُم وهُم يصارعون الألم..
فصبروا واحتسبوا، نحسبهم كذلك، ولا نزكي على الله أحدًا.
إلى الأرواح الطاهرة التي لبَّتْ نِداءَ باريها.. وأحبَّتْ لقاءَهُ بعد مرضٍ وهزال.
إلى الأجساد الصابرة التي تحوَّلَت من وضع إلى آخر، ولم يثنِها ذلك عن الرضا والحمد والشكر.
إلى روح أمي الغالية "رحمة" التي قضت في مرضها نصف مرض أيوب –عليه السلام– صابرة محتسبة.
إلى روح أستاذي فريد الأنصاري –رحمه الله– الذي دعا ربه معافًى ومريضًا، حيًّا وميتًا.
أهدي هذا العمل نصيحة وسُلوانًا لمرضانا ومرضى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

قال الله تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَص بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُــرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ، لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ سورة يوسف: الآية 3.

"نَقْلُ الْواقِعِ بِلُغَةِ الْأَدَبِ خَيْرٌ مِنَ كتابةِ الْخَيالِ بِلُغَةِ الْواقِعِ.."

أحمد بازز

تقديم

أضع بين يديك أيها القارئ مجموعة قصصية ستجعلك في الطريق الصحيح لتتعلم كيف لا تتألم...

وتتعرف على أسرار الألم...

أتوِّجها بتاج من أحسن القصص..

مرصع بمبادئ الرضا والصبر والاحتساب، وهي قصة النبي الأواب أيّوب عليه السلام.

إن الإحساس بالآخرين لن يتأتى لك إلا إذا كنت معهم.. إلى جانبهم، تشهدهم في مواقفَ مختلفةٍ، فتفرح لأفراحهم، وتتأثر لأحزانهم..

وعندما ترحل معهم في رحلة المرض تقتنع أنها تجربة تضعك أمام الأمر الواقع.. فيصبح الألم مألوفًا لديك، فتعرف ما معنى أن تعود

مريضًا وتؤنسه قليلًا.. هديًا وسنةً أرشدنا إليها الإسلام؛ فعندما تبشر المريض بالدعاء المبارك "لا بأس طهور ان شاء الله"[1]، يستبشر خيرًا ويتفاءل شفاءً.

لو أمعنت النظر أيها القارئ لوجدت أن الطيبين هم الذين يحتسبون ألم المرض صبرًا.. فحياتهم وموتهم سيان –طاعة لله، في المنشط والمكره– وبهذا سيتسلمون جوائزهم عند بارئهم، وينظرون إلى وجهه الكريم عيانًا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23)﴾[2]، فينسيهم ذلك كلَّ همٍّ وغَمٍّ وألَم...

ويشربون من حوض الرسول الكريم شربة هنيئة مريئة لا يظمؤون بعدها أبدًا، ويعيشون السَّعادة السَّرمدية في جِنان الخُلْدِ.

الطيِّبونَ يَرْحلونَ سِراعًا.. نفتقدهم، نحس بفراقهم، ويتركون فراغًا كبيرًا في حياتنا.. ولقد صدق الرسول الكريم ﷺ حين قال:

---

[1] صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس، حديث رقم: 7470.

[2] سورة القيامة: الآيتان22، 23.

«مُسْتَرِيحٌ وَمُستَراحٌ منه...» [1] مُستريحٌ من تعب الحياة الدنيا وآلامها.. رُغْمَ أنَّهُ يَتركُ خلفه حُزنًا عميقًا لدى أقربائه وأصدقائه...

أمّا المُستراحُ منه، فرمزٌ لمن نكّدَ حياة الآخرين وأساء إليهم واعتدى عليهم فيستريحون لفراقه.. العَبْدُ المُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِن نَصَبِ الدُّنْيَا وأَذَاهَا إلى رَحْمَةِ اللَّه، والعَبْدُ الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ منه العِبَادُ والبِلَادُ، والشَّجَرُ والدَّوَابُّ".

قصصٌ أبطالُها أَعُدُّهم على رؤوس الأصابع.. بعضهم من قرابتي، والبعض من صداقتي، والبقية منهم ساقهم القدر في طريقي..

إذا تأمَّلْنا حقيقة هذه الدنيا نجد أن اليُسرَ أكثرُ من العسرِ، وأن الرَّخاءَ أضعاف مضاعفة على الشدة؛ لكن الإنسان كان عجولًا، لأنه كما قرر القرآن خُلِقَ ضعيفًا..

والله سبحانه يبتلي العبد بالمرض، صالحًا كان أو فاسدًا، طائعًا أو عاصيًا، امتحانًا منه –سبحانه وتعالى– واختبارًا، وللصابر عليه مِنَحٌ

---

[1] أخرجه البخاري ومسلم في الآداب، حديث رقم: 9293. وفي الأحكام 1399، والإمام مالك في الموطأ في الرقائق حديث رقم: 5435. .https: //hadithm6 ma انظر منصة محمد السادس للحديث الشريف.

كثيرة؛ درجاتٌ تُرفع، تكفيرٌ للسيئات، زيادةٌ في الحسنات، دخولُ الجنة.. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)﴾ سورة الزمر، الآية 10.

وإن كانت العافية للمؤمن خير من البلاء والمرض.. فقُدوَتُنا –عليه الصلاة والسلام– علّمنا في غير ما حديث أن نسأل الله –تعالى– دائمًا العفْوَ والعافيةَ في الدِّين والدُّنيا. فقد روى الترمذي عن العباس بن عبد المطلب قال: (قلت: يا رسول الله؛ علِّمْني شيئًا أسأله الله عز وجل، قال: سلِ اللهَ العافية، فمَكَثْتُ أيامًا ثم جئت فقلت: يا رسول الله علمني شيئًا أسأله الله، فقال لي: يا عبّاسُ يا عمَّ رسولِ الله: سَلِ اللهَ العافيةَ في الدنيا والآخرة..)[1]

قد يكون العبدُ ممَّن كتب اللهُ له مترلةً عالية في الجنة؛ ولَكِنَّ عمَلَه قليل، وزادَه في الأعمال الصالحة يسير، وإرادة الله أن يصل إلى الدرجة التي كتبها له –سبحانه– في اللَّوحِ المحفوظ، فيبتليه ويصير إليها بصبره على بلواه، ورضائه بقضاء الله وقدره، وفي الحديث: "إن العبد إذا سبقت له من الله مترلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في

[1] صحيح أبي داود، وصححه الشيخ الألباني كذلك.

جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبَّره على ذلك حتى يُبَلِّغَهُ المترلةَ التي سبقت له من الله تعالى"[1].

وبالمثال يتضح المقال؛ فلو أردنا ان نُطَهِّر المعدن من الخَبث وضعناه في النار حتى يصير أحمرَ ثم أبيضَ، ثم نخرجه فنضربه ضربًا كثيرًا وقويًّا حتى يطير منه الخَبث فيصير نظيفًا نقيًّا، فكذلك العبد المذنبُ إذا أراد اللهُ أن يُطهِّرهُ من الذُّنوبِ ابتلاهُ، ولن تزول بلواه إلا وقد غفر الله له وأعتق رقَبَتهُ من النار..

فهذه الصحابية أمُّ العلاءِ لّما زارها النبيُّ ﷺ في مرضها قال لها: (أبشري يا أم العلاء، فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تُذهِبُ النارُ خبث الذهب والفضة)[2].

ومجمل القول في هذه الديباجة أن الإنسان المسلم إنما يبتليه الله على قدر إيمانه؛ قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلْبًا اشتد به بلاؤه، وإن كان

---

[1] الحديث رواه أبو داود، وصححه الألباني.

[2] الحديث رواه أبو داود. وأم العلاء هذه هي عمة حزام بن حكيم رضي الله عنهم جميعًا.

في دينه رقة ابتُلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة. [1]

وكتبه العبد الفقير إلى عفو الله ورحمته

أحمد بن سيدي بن عزيز في العطاوية – قلعة السراغنة

المملكة المغربية يوم: 14 ذو القعدة 1446 الموافق لـــ13 ماي 2025

[1] الحديث أخرجه الإمام أحمد، وصححه الشيخ الألباني، وفي رواية صلابة.

القصة الأولى

سرُّ الألمِ مع النبـي "أيوب" عليه السلام:

قال تعالى: "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3)". يوسف، الآية: 3.

فالقصة في القرآن للْعِظَة والعبرة والمواساة، اقتداءً بالأنبياء في الصبر على المكاره.

لذلك أفْتَتِحُ هذه القصص بقصة أيوب –عليه السلام– من القرآن الكريم، نستلهم منها العبر ونَتَّعِظُ بما فيها من العظـــات.. وعلـــى منوالها نَسَجْتُ بقيةَ القصصِ، توخَّيْتُ فيها الواقعيةَ منهجًا، والحكي الأدبي سردًا.

لقد قيل الكثير عن مرض هذا النبي الأواب؛ التائب المسبح الذاكر المستغفر... فلا تلتفت إليها فهي من أخبار الأسفار المحرفة في كـــل الفصول والأبواب[1]، تسيء إلى الأنبياء ولا تخبر عـــنهم بحقـــائق

[1] هناك في الكتاب المقدس المزعوم من بين الأسفار المقررة سفر أيوب، جاء فيه: "فخرج الشيطان من حضرة الرب، وضرب أيوب بقرح رديء".. ومثل هذه الأخبار لا نصدقها

الأمور، وإن أَرَدْتَ الصوابَ فحسْبُكَ في النَّبي القدوةِ موضعان من القرآن، هما الدليل والبرهان، تجعلك تعيش الوقائع كأنك تنظر إليها عِيانًا..

الموضع الأول: في قوله تعالى: في سورة ص ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)﴾.

الموضع الثاني: قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)﴾.

أيوب عليه السلام نبيٌّ من سلالة إبراهيم الخليل ورد ذكره في القرآن الكريم في مواضع... فهو ممَّن أوحى الله –تعالى– إليهم.

ولا نكذبها، بل نقول –كما علمنا الرسول الكريم– ﷺ: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل اليكم.

وقد أنعم الله عليه بكل النعم؛ الصحة والمال والأهل والأولاد... فكان عبدًا صالحًا مصلحًا؛ لَكِنَّ الشيطانَ كما يقول ابن كثير: "سمع ملائكة الله يتكلمون عن كون أيوب الرجل الأكثر إيمانًا في زمانه، نبي الله المختار ملتزم بالصلاة اليومية، ويدعو الله في كثير من الأحيان لشكره على إنعامه عليه بثروة وفيرة وعائلة كبيرة. لكن الشيطان يُخطِّطُ لإبعاد أيوبَ عن خَشْيَةِ الله ويريده أن يقع في الكفر والفساد..." وهذا دَيْدَنُهُ مع كلِّ الْعِبادِ.

ومرضُ أيّوب هذا لم يسجِّلِ التاريخُ مثلَه قَطُّ، فقد مرِض حتَّى عافه الجليسُ، وأوحش منه الأنيسُ، وأُخرِجَ من بلده... وانقطع عنه الناسُ، ولم يبق أحدٌ يحنو عليه سوى زوجته... سُلِبَ كلَّ شيْءٍ؛ المالَ والأولادَ والصِّحةَ بحيث ابتُلِيَ في جسده بصُنوف البلاء، وما سَلِمَ من جميع أعضائه إلا قلبُه ولسانُه، لأنَّ مصْدَرَ المرض حسدٌ من إبليس اللعين...[1]، وكذلك تفعل الأبالسة الآدمية حسدًا وعينًا بالأخيار..

ومع كل ذلك استحيى نبيُّ اللهِ أيّوبُ –عليه السلام– أن يسأل الله رفْع البلاء عندما طلبت منه زوجته ذلك، حتى يَمضي عليه في

---

[1] انظر البداية والنهاية لابن كثير، ج 1، قصة نبي الله أيوب –عليه السلام– عن موقع wikisource. org. ar//https:

الشِّدَّة ما مضى عليه في الرَّخاء؛ وقد مضى عليه في الرخاء سبعون سنة، بينما قضى في المرض زهاء ثمانيةَ عشَر سنة ولما أنْهَكه المرضُ ووصل بهما الجوعُ مبْلغ الطوى.. وباعت زوجته ضفيرتها لتحصل على الطعام.. تأثر النبي أيوب –عليه السلام– لحالها.. هنا رفع أَكُفَّ الضَّراعة والدعاء إلى أرحم الراحمين: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83)﴾ سورة الأنبياء.

وشفاءُ اللهِ لنبيه أيّوب عليه السلام، إنما كان رحمةً منه تعالى وإكرامًا له على صبره. ألَم يقلِ المولى شهادة في حق عبده الطائع أيّوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)﴾ سورة (ص).

وتركها موعظة خالدة في كتابه العزيز لأصحاب العقول النَّيِّرة؛ هكذا نستفيد جميعًا أن خاتمة الصبر دومًا هي الفرج وكشْف الضر، إن كان في العُمُرِ بقية.

القصة الثانية

الرجل العظيم.. والصراع مع الألم.

عبد العظيم .. رجلٌ طيب، وطيبته عرفها أحمد عن كثب منذ الطفولة..!

زفَّ الأهلُ "سِهام" الأخت، إلى زوجها وهي لأحمد بمثابة الأم والأخت معًا، اعتنت به منذ ولادته، فهو آخر العنقود..

وكانت مراسم الزواج والتحاق الأخت بزوجها بالنسبة لأحمد بمثابة سنوات في الزمن النفسي؛ لأنه لا يستطيع الفكاك عنها.

ولما هدأت الأمور زار أحمد أخته.. فتفاجأ بطيبة زوجها وروحه المرحة.. فكان يرافقه مثل ظله، أينما حل وارتحل، فهما أشبه ما يكونان بأب وابنه. وما يزال أحمد يذكر أنه ما تعرَّف على البط والإوز إلا برفقته، ويعتقد أنه دجاج من عالم آخر يعيش تحت قنطرة واد إفران.

ولحسن الصدف فإن أحمد ولد في البادية التي تزوجت فيها أخته ورحل عنها، ولكن بعد أربع سنوات عاد إليها وكأن الحنين أخذه إلى مسقط رأسه "دار المعطي رحمه الله" في اغرم.

ازداد أحمد تعلقًا بزوج أخته في تلك السنوات التي قضاها معه.. إلى أن فصلت بينهما المدرسة؛ فحيل بن أحمد وبين ما يشتهي.

وُلِد لعبد العظيم الرجل الطيب غلام فكان بمثابة حلقة وصل بين الأسرة الجديدة وأحمد، بحيث كان يقضي كل عطله رفقته.. يلعبان معًا.. يسبحان.. ويتمتعان بهواية صيد السمك.. يساعدان الأسرة في أعمال الحقل ويستمتعان معًا، وهما يافعان في أرض البادية النقيّة..

.. ما تزال أهازيجه وأذكاره وتهليلاته تطرق الآذان: الأرض فدان الله والعباد زراعها.. لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله...

لا إله إلا الله.. نحن فيك يا دنيا.. كضيف حطَّ رَحله.. بات وفي الصبح رحل..![1]

[1] هذا الابتهال بالأمازيغية: لا إله إلا الله نكا ذيكم أدونيث.. أمونمجي نينسان اسكا كلمان إدو زيك

ظل أحمد مرتبطًا بأخته وزوجها حتى زمن الجامعة.. حتى أبعدته الوظيفة عنهما لبعد المكان..

عبد العظيم رجل صبور يكسب قوت عيشه من كدِّ يَدِه، لا يشتكي دهرَه لأحد كما يفعل الكثيرون.. وكان سندَه بعد الله أخوه الشقيق الأصغر منه "عبد الرحيم"، لأنه كان في ديار المهجر يرسل إليه حوالات مالية في المناسبات والأعياد.. ينفق عليه كما لو كان ابنه البكر..

أُصيب عبد العظيم بورم على مستوى فخذه، ولكن منعه حياؤه من إظهاره أو الكشف عنه لدى طبيب أو حبيب؛ فظل يعاني في صمت لسنوات.. الورم يكبر والألم يزداد حِدّةً..

لكن حان الوقت الذي توجَّع فيه وتألَّم ووجد آذانًا صاغية؛ ابنيه البارَّيْن اللَّذَين قدَّما كُلَّ غالٍ ونفيس لنجدته.. كان تألُّه أنينًا لطيفًا يوحي بعمق الصبر أمام أقدار الله..

استفاد من البروتوكول العلاجي ما يقرب من سنتين كاملتين.. كأن المرض خمد بصبره لا بالدواء.

ألَمُ هذا المرض متعدد، يبـــدأ بالتنقـــل إلى المستشـــفى والانتظـــار والتحاليل.. والأعصاب في انتظار النتائج.. وهلمَّ جرًّا..

كان لطيفًا وصبورًا، لكنه لم يجد من بقية أسرته ما يكفي من العناية والرِّعاية.. زوجتِه وبناتِه..

فقد كانت زوجته وبنتُه الصغيرة يسافران للعمل ــ في الضـــيعات الفلاحية ــ في أماكن بعيدة ويتركانه وحيدًا.. دون أن يجد من يُعِدُّ له الطعام.. ويجالسُه، من يعطيه الدواء ويؤنسه؟

وكانت أعذارهما واهية، العمل العمل!

وهو الرجل الخجول، يرفض أن يذهب إلى بعض قرابته من الجيران استحياءً، بينما كان الآخرون من أبنائه في مـــدن أخـــرى حالـــت المسافات بين لقائهما إلا نادرًا.. ظل ابنه البكر قريبًا منـــه.. يتتبّـــع حالته الصحية.. يستوصي به أهل البيت خـــيرًا ويعـــاتبهم علـــى الهُجران.. لكنه لم يكن يرغب أن يرمي باللَّومِ عليهم..

لما كان في البادية اشتغل في بستانه بزراعة الخضر وجني الفواكـــه وبيعها في السوق.. برع في جَنْيِ التِّينِ الشَّوْكي؛ يبيع منه ويتصدق على العائلة في المدينة.. كان قنوعًا بما تجود به السوق، كما عمـــل على بيع الحطب في المدينة.

المهنة التي ذكرها النبي أنها خير من أن يمد الرجل يده يتكفف الناس أعطوه أو منعوه.. هي حقًّا شرف وتحفظ ماء الوجه[1].

إن سرَّ الصبر الذي رُزِقَهُ الرجل العظيم عبد العظيم مقابل الألم لم يأتِ من فراغ.. بل جاء من طيبة المعدن وفِعل الخير، والرزق الحلال وحب الناس والأخلاق الحسنة.. وصِلة الرَّحم التي ما توانى في وصلها؛ بزيارة أخواته وأخواله وعشيرته بِيَدٍ سخية ووجه بشوش.. كان محبوبًا يملأ البيت حديثًا سجيًا.. حكايات.. مغامرات فيستأنس به الجلساء كما لو كان حكواتيًّا في جامع الفناء...

كل ذلك كان له عوْنًا على تحمّل جبال الألم التي سبّبها هذا المرض الخبيث "السرطان".. اسمه فقط يُضْعِف المناعة ويصيبك بالدوار والغثيان.. بل قد يقتلك أحيانًا..

الرجل الصبور" عبد العظيم "تحس به يتألَّمُ وهو يرْمُقُكَ ببصره وأنت من جلسائه.. لم يُعرف بالتشكي لِما أصابه، فهو يؤمن بأن التشكّي ينبغي أن يكون لله وحده فهو القادر على تخفيف الألم أو اجتثاثه من أصله؛ وكأني أسمعه همسًا يقول:

---

[1] إشارة إلى حديث الحبيب النبي: "لأن يحتطب أحدكم على ظهره خير له من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه". متفق عليه برواية أبي هريرة.

إذا شـــكوتَ إلى ابن آدم إنمـــا
تشكو الرحيم إلى الّذي لا يرحمُ

مجرد كتمان هذا المرض موت محتمل ومعالجته بالأشـــعة والأدويـــة الكيميائية.. موت محقق!

مشيئة الله وإرادته أكبر من أي شيء.. من كان مع الله.. كـــان الله معه.

كان عبد العظيم على دين الفطرة، ما فرَّط في صلاته..

لّما كان في البادية كان يمتطي دابَّته ويمشي مسافةً طويلـــة ليحضـــر صلاة الجمعة ولا يرجع إلا بعد أداء صلاة العصر..

ولما رحل إلى المدينة لازَم المسجد.. فأصبح من أوتاده.. سيما وأنـــه قد وجد البيت في المدينة مثل القبر، تحيط به جدران أربـــع قيَّـــدَتْ حُرِّيته.. حريةَ النظر والبصر الذي كان يطلقـــه بعيـــدًا في رؤوس الجبال والشجر وقطعان الغنم والبقر وفي السماء حيث الســـحاب يصول ويجول في الأعالي يمينًا وشمالًا، ويجودُ بالقطر للرُّبى.. لوحات جميلة ترسمها الطبيعة كل صباح ومســـاء مـــع شـــروق الشـــمس وغروبها..

رغم أن ولَديه ينفقان عليه وعلى بقية أفراد الأسرة مناصفة.. فلم يتخلَّ عن العمل.. فالعمل عبادة وشرف.. فيه يلتقي مع الناس.. يألف ويُؤلف.

اتَّخذ عربة يدوية ينقل بها البضائع للناس من السُّوق إلى منازلهم، ولم يأبه بما يقوله أبناؤه لشرف ما يعمل.. ولأن سيد الناس خادمهم كما يُقال..

كان يعمل ويتحرك يذهب ويجيئ والمرض ما تزال آثاره تنهك جسده الطاهر.. وبعد مدة.. عاود الداء زيارته بحدة أقعدته عن الحراك.. يتألم في صمت.. يحمد الله على كل حال.. يشكره على رؤية الأحباب والأصدقاء وعلى التفاف العائلة من حوله.. وكأن ذلك كان توديعًا لروحه الطاهرة..

عاود العلاج، ولكن المرض إنما سكن لينتفض وينتشر في كل عرق بل رحمة ولا شفقة..

أضحى طريح الفراش يعوده الناس فلا يجدون منه إلا قوة وثباتًا.. حامدًا شاكرًا راضيًا بكل ما قدره الله وقضاه.. كان محبوبًا حقًّا عند الجميع، لأنه كان اجتماعيًّا ولم يكن انطوائيًّا كحال الكثير من أصحاب المصالح الخاصة..

إذا زرته على تلك الحالة.. أمْسَكَ بيدك بقوة مبتسمًا مستفسرًا عن قرابتك وحياتك وكيف تسير الأمور، وكأنه يسأل عن حياة أخرى بلا تشويش ولا كدر..

كان كل أفراد أسرته معه قلبًا وقالبًا، إلا الحقودةُ بنتهُ الصغيرة التي تعاملت معه بلا رحمة ولا عطف، نزعت عنه كل غطاء وثير وافترشت له الحصير..

نزعت عنه جديد الدثار ورضيت له القديم والعار.. تتأفف عليه... تصيح في وجهه..!

لمن تدَّخرين هذا الفراش يا وردة العَلْقَمِ.. إن لم يستفد منه أبوك في وقت الشِّدَّة والحاجة..!؟

بفعالها هذه ستنال جزاءها في الدنيا قبل الآخرة ولا شك، فإنَّ اللهَ يُمْهِلُ ولا يُهْمِل، ويُعجِّلُ عقوبةَ العقوق في العاجلة قبل الآجلة..!

كان قلبها عليه أقسى من الحجر.. فهو يكتم هذا الإحساس ولا يبديه لها.. ويترضى عليها.. لكن هي من العقوق أَقْرب إلى الرضا.. ولَّما قضى نحبه والتحق بالرفيق الأعلى ادَّعت حبَّه وأظهرته ادعاءً.. وبكت عليه عويلًا وصياحًا.. لكنه بكاء التماسيح عندما تريد أن

توقع بالفرائس في شراكها.. وكانت تردد: أبتِ.. أبـــتِ ومـــن لم يسبق أن تعرَّف على طويتها، عن كثب، يحنو عليها ويرحم..

.. رحل الرجل المحبوب عبد العظيم الطيب وترك فراغًا كبيرًا لدى محبِّيه من جهة، وفي البيت من جهة أخرى.. فأصْبحت غُرَفُه خرابًـــا تسكنه العناكب والبومُ.. بعدما كانت عامرة..

صبر في رحلته مع المرض، حتى وافته المنية، فنرجو أن يبشـــره الله بجنة الفردوس الأعلى، وأن يكتبه عنده من الشهداء.. شهداء الألم.

القصة الثالثة

فاطمة.. امرأة من عيار ثقيل..

"فاطمة" لم تكن امرأة عادية كباقي النساء.. بل كانت امرأة طاهرة نقية؛ روحًا وهندامًا، أنجبت ستة من الأبناء سهرت على تـــربيتهم رُفْقَةَ زوجِها الطيِّبِ الوقور، الذي تعلَّمَتْ منه كَّل الخِلالِ الحســـنة، وحَمَلَتْ عنه، بعدَ وفاته، مِشعل الصِّلة.. صِلة الأرْحام..

ما مِن جُمُعَةٍ إلا والسَّيدةُ "فاطمة" تنير بيتنا زيارةً.. هي سنة حســـنة اعتادتها منذ وقت طويل..

تزور أقارب الزوج كما لو كانوا أقارِبَها.. زيارات خاطفة خفيفة، ولكنها تترك أثرًا عميقًا لدى المَزور..

ظلت على هذه الحال سنوات كثيرة، وهي بذلك استطاعة أن تربط جسور المحبة بين الأقرباء..

حتى أُصيبت بورم "سرطاني" على مستوى الرأس... بتقدير الأطباء لن تعيش طويلًا؛ لكن بتقدير العزيز العليم أمر آخر..

حظيت المرأة الطيِّبةُ بزياراتٍ متتاليةٍ إلى الأطباء الاختصاصين تحت إشراف أبنائها وبناتها البررة.. الذين رضعوا منها كل خُلُقٍ حسن، وكانت لهم قدوةً في حياتهم..

وهاهم الآن في الخدمة ويقولون بلسان حالهم، اعترافًا في حق الوالدين:

﴿... رب ارحمهما كما ربَّياني صغيرًا﴾[1] .

فالرَّحمةُ ههنا تتجاوز ما بعد الموت إلى الحياة، جزاءً على تلكم التربية الحسنة التي تنعَّمت الأسرة –برمتها– في ظلالها الوارفة..

ورمٌ في الرأس ما أخال الأدوية توقفُ زَحْف هذا الوحش، سيما إذا كان على مستوى الرأس.. لولا لطف الله.

.. أصبح السرطان في جسمها كبركان نائم ساكن.. وخامد ينتظر متى يستيقظ ليرسم فوهته ويخرج بصهارته زحفًا على كل الأعضاء..

---

[1] جزء من آية قرآنية، سورة الإسراء، الآية 24.

الله أوقفه.. ليهب لهذه السيدة حياة أطول... وطاقة أكبر لتَحَمُّلِ الألم.. أو يخفِّف من حدته..

قبل مرضها، أشرفت على تركةِ زوْجِها، وليست كباقي الزوجات، فَبيعَ المنزل، وتمَّ تقسيمَه شرعًا على الورثة.. ورضيت أن تبقى هي الأخرى من تركة أبنائها تنتقل من الكبير إلى الصغير ومن الذكر إلى الأنثى مُعْلنة العدل بينهم في المنشط والمكره والترضي عليهم.. في الدعوات.. في النظرات، وحتى العبرات..

مع هذه السيدة رأيت بأم عيني بشارات:

الأولى: بركة الرزق وطول العمر، ولعل حديث النبي يصدِّق ذلك: "من أحب أن يُبسط له في رزقه، وأن يُنسأ له في أثره فليصل رحمه".[1]

طال عمرها ولا نسيان.. ولا خرف أو زهايمر..

الثانية: تُلازِمُ وِرْدَها دائمًا، تذكر الله كلما سَنحت الفرصة.. ما لم يقطع لذة مناجاتها قاطع، وهي غارقة في لذة المناجاة.

---

[1] الحديث أخرجه البخاري، باب البر والصلة، حديث رقم: 2067، وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة وتحريم قطيعتها، حديث رقم: 2757.

الثالثة: نظيفةُ الثياب.. خفيفة الظل، حتى على من كانت نوبتــه في القيام بشؤونها..

يشع نور الإيمان من وجْهها.. تعرف كل مــن زارهــا وتفاصــيل العائلات.. لم تنسَ من ماضيها الزاهر شيئًا.. حتى ولــو أضــحت طاعنة في السن؛ تتعرف عليك من خلال نبرة صــوتك أو نظــرة حانية.. وكأنها تفك شفرةً قد وضعت قواعدها في رحلتها الناجحة مع صلة الرحم.. أَحبَّها الصَّغير.. بل الكبير.. والأقاربُ والجيرانُ.

الرابعة: ملامحها بقيت كما هي؛ لم يسقط لها شعَر ولم تفارقِ الْبَسْمةُ مُحَيّاها.

أقعدها الألم والمرض.. وَدَبَّ الهُزال في جسمها بالكامل، إلا عقلَهــا ولسانَها، فلم يتسلل إليه الخَرَفُ ولا الكلام البذيء كما فعل بِجُلِّ المرضى.. ألا تعجب معي أن ثَمَّة أيضا أسرارًا يضعها ربّي في بعــض خلقه.. وأوليائه ذكورًا وإناثًا..!

وكما كانت تزور الناس.. فالناس الآن يزورونها كما لــو كــانوا مدينين لها بديون أثْقلت كواهِلَهم.. نعم لقد أرغمتهم على ذلــك بالقُدوة الحَسنة..

عاشت حياة نقيّة ورضيّة، وماتت ميتة سوية لتلتحق بالرفيق الأعلى هي الأخرى شهيدة المرض.. بعد عشْر سنوات من الألم..

الألم الذي.. خففته الطاعات وفعل الخيرات.. إنها الناصحة الأمينة، رحمها الله رحمة واسعة.

القصة الرابعة

حفيظة، الروح الطاهرة..

عادت مع زوجها، بعد رحلة عمل تكللت بالتقاعد، عادا معًا إلى المدينة التي تسكنها العائلتان..

كانت أصغر أخواتها، وأرقَّهُنَّ قلبًا، وأكثرهن محافظة على الواجبات.. كانت محافظة –اسمًا على مسمًّى– تُحِبُّ الْخيْرَ وأهلَه..

كلامها كله طيب، تحرص أن تزور أخواتها، وأن تكون حلَقَةَ وصْلٍ بينهُن..

في بيتها الفسيح والجديد، عاشت آخر أعوامها السعيدة، أنجبت أربعةً من الأولاد؛ أوسطهم بنت قرت بها العين كما لو كانت جوهرة وسط عقدٍ يحيط بالعنق.. تتفقدها بين الفينة والأخرى لأنها ثمينة وباهظة الثمن.. وهذا لا يعني أنها لا تهتم بالذكور.. ولكن في نظرها المرأة أضعف من الرجل، وهي أحوج إلى رعاية وعناية زائدة..

بعد زواج فلذة كبدها هذه كانت تسهر علـــى أبنائهـــا، وتحضـــر مناسباتها من ولادة وعقيقة وجل أفراحها..

كانت محافظة على ذلك، لم تكن ترتاح لأغلب هذه المناسبات.. وما يتخللها من فرح بلا ضوابط..

وتمضي الأيام.. حتى زارها الألم فجأة على مستوى المعدة والجهـــاز الهضمي.. وتذكر أنها تناولت طعامًا فوجدت أثرهُ السيئ في حينـــه، وكأن يدًا خفيةً امتدّت إليها بسوء.. ولكنها جعلت ذلك ســـرًّا لم تُفشِه لأحد.

المعدة تعتصر الطعام، والألم من المعدة يعتصـــر "حفيظـــة، الـــروح الطاهرة".

فحوصات.. تحاليل.. أشعة.. رنين مغناطيسي.. مع أشهر الأطبـــاء وأحسن المستشفيات وأرقى المصحات؛ لكن لا ينفع حذر من قدر..

أخفت العائلة مرض "السرطان" عليها رحمة بها.. لكن مـــع مـــرور الوقت بدأت مناعتها تنخفض وتتدهور.. اعتادت الألم منذ بدايته، فعلمت في النهاية أنه المرض الخبيث..

المرأة التي كانت أكثر نضارة وبهاءً.. أصبحت نحيفة هزيلة.. كما لو شهد عالَمُها مجاعةً عقدًا من الزمن.

إذا زرتها لا تجد منها إلا لسانًا شاكرًا حامدًا، تقول:" مرحبًا بأمر الله".

.. الحمد لله على كل حال.. لطف الله يتصرف... وأمثالها من كلمات الخير بلا تسخُّط أو جزع..

خاضت تجربة مريرة مع العلاج والتحاليل وانتظار النتائج خارج مدينتها عند أصهارها..

للقرب من الطبيب ومكان العلاج..

تأْمُلُ أن يتحسّن حالُها، فخاضت تجربة الحمية في الطعام والشراب، وكانت النتائج تحسُّنًا يسيرًا زرع الأَمل في حياتها وشفائها..

صامت رمضان حامدة شاكرة.. جمعت الأهل والعائلة والجيران في وليمة طعام.. وجلْسةِ قرآن.. ودعوات تستمطر منها الشفاء من الداء..

لكن كانت الجلسة كلحظة وداع لمعارفها وأقاربها..

رافقها زوجها في رحلة العلاج مكافحًا.. متحديًا كل العراقيل والصعاب، ولم يبخل عليها بشيء، فهي رفيقة دربه.. وأم أولاده وسنده بعد الله..

بعد هذه الاستراحة التي جدّدَت عزيمتها ضد المرض والصبر للعلاج.. إنه البروتوكول العلاجي الأكثر ضراوة وفتكًا بمناعة الجسم؛ العلاج بالأشعة للقضاء على الخلايا السرطانية..

لكنه للأسف يقضي على الإنسان قبل السرطان..

ساءت حالة السيدة الصبورة ولسانها الشاكر الحامد يخفف عليها وعلى الزوار..

فلا تشتكي إليهم كما يفعل أغلب المرضى، بل تقول: "أنا الآن أحسن حالًا من ذي قبل".. فتعطيك الأمل في الحياة.. وإن كانت في قرارة نفسها تعزيها..

حصلت حفيظة على نصيبها من إرث أبيها.. فوضعت نُصْبَ عيْنَيْها استكمال العلاج، وزيارة الأماكن المقدسة.. هنا تكتشف فعلًا أن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى.. وإنما تُعرفُ الأشياءُ بضدها.. كما يقال... وأشبه ما وجدت من الشعر لحالها، ما قاله بدر شاكر السياب:

لك الحمد مهما استطال البلاءُ

ومهما استبدَّ الألمْ

لك الحمد إن الرزايا عطاءُ

وإن المصيباتِ بعض الكَرَمْ

ألمْ تعطني أنت هذا الظلامْ

وأعطيتني أنت هذا السحرْ؟

فهل تَشكرُ الأرض قطْر المطرْ

وتغْضَبُ إن لم يجِدْها الغمامْ؟[1]

طال المرض لحَوْلَيْنِ كامِلَين من الألم.. يخفِّفُــه الرَّجــاءُ.. ويُلَطِّفُــهُ الْأَمَلُ..

[1] الإحالــة: https: //www. aldiwan. net/poem24806. html موقع الديوان.

اسْتَكْمَلَتِ العلاجَ واسْتَكْمَلَ العمر دقائقه الأخيرة.. ففاضت روحُها إلى باريها... رحْمَةُ الله على الرّوح الطّاهِرة..

وما زِلْتُ أسْترجِعُ ذكراها.. فتفيض عيني بالدمع حَزنًا..

ولو نطقت بعد رحيلها لقالت:

تقاسم الأهل من بعدي كلَّ أمْوالي

من حِلٍّ جمعتها ومن إرثِ أَبـــي

وأثوابٍ جديدةٍ ملَأْتُ بها خزائني

وزِدْ ما جَمَعْتُه من حُلِيٍّ ومِن ذَهَبِ

واتَّخذَ الْبَعْلُ يا قومي زوجًا له بدلي

كأنَّ العهدَ الذي بيني وبينَه عَدَمي

واستعملوا أثاثي من فِراشٍ وآنِيَةٍ

وكلَّ شيءٍ نالَ إعجابي كعِطْرِ الحرمِ

القصة الرابعة

الرشيد عبد الله.. الشاب الطيب..

شاب طموح تخرَّج من الجامعة والأملُ يحدوه لمستقبل سعيد.. عاش ضد التيار.. بسبب المبادئ والقيم.. اختار طريقًا حسنًا، لكن مجتمعنا يريدك أيها الشاب أن تعيش حياة بلا ضوابط، وأن تتمتع بفترة الشباب وزهرة العمر، وأما الالتزام والتدين فيتماشى مع الشيب، وعندما تبلغ من الكبر عتيًّا..

درس وبدون منحة جامعية، عكس أقرانه وأترابه..

جَدَّ واجْتَهَدَ وحصل على شهادة التخرُّجِ في غضون ثلاث سنوات. خاض في هذه المرحلة تجربة علمته الكثير عن معترك هذه الحياة المليئة بالتحديات، حاول جاهدًا أن يعتمد على نفسه في تدبير ميزانيته الخاصة.. لأنه ما يزال تحت نفقة والده..

امتهن مهنًا كثيرة.. لكنها كانت مؤقتة..

اشتغل مدَّةً لا يُستهان بها في مكتبٍ لاستخلاص فواتير الماء والكهرباء، هنا وجد مفارقة عجيبة بين الأغنياء والفقراء..

براتب زهيد يستغل أرباب العمل عمّالَهم لِجَنْيِ أربـــاحٍ كثـــيرة.. لتكديس الأموال في بنوكهم.. أما العاملُ فلا ينبغي له أن يتغيب أو يمرض أو أي طارئ يحول بينه وبين العمل..

كان جهوريَ الصوت.. ولطالما سبب له ذلك سوء تفاهم مع زبائن المحل.. فقد أوصله مرّات كثيرة إلى العراك.. لولا عدوله.

اشتغل في مخبز لتوزيع الخبز، لكنه لم يَدُم طويلًـــا.. طـــرق أبـــواب الوظيفة مرات عديدة لكن دون جدوى..

اشتغل مؤطرًا في برنامج مَحْوِ الأمية.. ثم مشـــرفًا.. حقـــق بعـــض الكفاف.. هنا راوده الحلم كي يتزوج.. وعندما وجد نصفه الثـــاني قرر أن يعزل عن أسرته.. لكن أعباء الزواج أثقلت كاهلـــه، وزد على ذلك دَيْنًا لأمه تحمَّل ردَّهُ بِرًّا بها، في الوقت الذي تخلى عنهـــا الجميع.. ومن هنا بدأت معاناته..

كراء، مصاريف حياتية، سفر اضطراري، ثم أنجب طفلًا.. ازدادت معه المصاريف حدة وثقلًا.. وهنا لجأ إلى الاستدانة..

استدان من معارفه وأصدقائه، واقترض مـــن طلابـــه، واســـتعطف صاحب المنزل لتأخير سداد ثمن الكراء.. أشـــهرًا.. اســـتدان مـــن المؤطرين أمثاله..

غلبه الدَّيْنُ وألحق به هموماً كثيرة، تكاد فروة وجهه تسقط حياءً، وقد صدق الحبيب النبي الذي قال فيه ﷺ: "... وأعوذ بك من غلبة الدَّيْنِ وقهر الرجال". [1]

ربما هذا كله هو النقطة التي أفاضت الكأس، وعلى إثرها اشتدَّ به الألم على مستوى رجله، بدأ يحس بألم يجر منه العروق والعصب، حتى إنه في حالة ذروة المرض لا يقوى الجلوس على الكرسي.. صبر على تلك الحالة مدّة من الزمن يعزي نفسه بالحمد والشكر ومشيئة الله..

في بعض الأوقات يعتقد أن هذا الألم هو نفسه ناتج عن عرق النَّسا الذي يتحدث عنه الناس في الغالب، فيجعل نفسه إمعة: أنا مثل باقي الناس.. هذا مرض العصر.. أصبر وأحتسب...

لكن بعد زيارة الطبيب وإجراء التحاليل تبين أن الأمر أكثر من المتوقع..

كيف سيصل الخبر إلى مسمعه.. إلى زوجه.. إلى أهله وعشيرته..!؟

إن خبر المرض والإخبارَ به لهو أشدُّ على المرْء وقْعًا وألَمًا..

---

[1] حديث رقم 6363 رواه أبو داود والبخاري بلفظ: ضلع الدين...

على كل حال وصل الخبر إليه.. أصابته صدمة كبيرة خففها الإيمان بالقضاء والقدر.. "آخِرْها موت" كما يُقال باللسان الدارج..

بصيص من الأمل في العلاج هو الذي يجعلك تعمل فحصًا بعد آخر، وتحاليل تلو أخرى، وتَتبُّعٌ منتظم للطبيب..

لكن الشاب العاقل كان أملُه قويًّا في الذي أنزل الداء، أن ينظر إلى حاله، سيما إذا كان في العمُر بقية..

ظلَّ الخبرُ حبيسَ العائلة والمقرَّبين من الأصدقاء، ثم ذاع وانتشر كما يفعل الداء الخبيث نفسه في الجسد..

تألَّم الجميع لحاله وأشفقوا عليه..!

زرته يومًا في بيته، ما كِدت أتعرَّف عليه.. لولا إخبار أمّه وأخيه وزوجتِه وتأكيدهم لي أنه هو نفسه الرشيد عبد الله..

.. تغير كل شيء في جسده.. من رأسه إلى أخْمُص قدميه.. حتى صوتُه باتت فيه بحة يصعب بها فهمُ مقالته...

أفْهم همهمته بترجمة حركات رأسه.. بَكَيْتُ بحرارةٍ وسالت على خدَّيَّ الدموعُ والعبَراتُ وكانت ساخنة، كمل لو كانت شظايا وحُممَ بُركان، لِما آلت إليه حال هذا الشاب..

وما هي إلا أيام حتى قرع الخبر أذني كما تُقْرَعُ الطبول في الحرب؛ قرعًا بوفاته.. فدام الرنين في أذني أشهرًا.. لم أصدق كأنه موت فجأة.. ولكن المسكين لبى نداء الجليل..

اختطفته يد الردى من بين أفراد أسرته الصغيرة والكبيرة، وأصدقائه وطلابه... وسكان حومته..

ولئن مات مبكرًا وفي ريعان شبابه، فقد ترك بُضعة من صلبه تخلِّدُ ذِكراهُ إلى الأبد، وتُمدُّ جسور التَّعارف والوصْل بين أقوام من وسط البلاد وجنوبه..

فهو بحمد الله أفضل بكثير من أولئك الذين بلغت أعمارهم الخمسين والستين وما يزال تأكل نطفهم الخلوات والجلوات...

عبد الله.. كان طيبًا ومباركًا.. فبعد وفاته ظهر غرماؤه وأبدَوا سماحةً في حقه، ولم يستخلصوا جل ديونهم من عائلته، بل تعاونوا معها على مصاريف العزاء.

كان موته فاجعة لأنه كان يعاني ولا يظهر ذلك، صبرًا وتصبرًا، جعل الله قبره روضة من رياض الجنة.

القصة الخامسة
لقاء في المصحة.. أمّي فاطْنة..

في قاعه الانتظار دخل إبراهيم مع زوجته في انتظار دورهما لإجـــراء العملية للزوجة، ونظرًا للاكتظاظ الذي تعرفه هذه المصـــحة فقـــد ضمت الغرفة ثلاثة مرضى، إبراهيم بمعية زوجته، وأمِّي فاطنـــة مـــع إحدى بناتها.. ومـــريض آخـــر حـــان دوره للـــدخول إلى قاعـــة العمليات...

دخل إبراهيم إلى الغرفة مع زوجته، فسلَّما وألْقَيا التحيـــة علـــى الحاضرين في القاعة –والوقت وقت زيارة– كانت هناك من بينهم امرأة في عقدها السادس أو السابع رفقه بنتها اليافعة..
ولما جلَس الداخلان صوّبت هذه المرأة بصرها نحوهمـــا، وكانـــت شديدة الملاحظة.. تقرأ الوجوه وتتفحصها، وتفك شـــفراتها.. بـــل تعرف طينتها كما لو كان لها صلة بعلم القيافة[1].

[1] القيافة في القاموس هي اتباع الأثر. واصطلاحًا القيافة هـــي إلحـــاق الأولاد بآبـــائهم وأقاربهم، استنادًا إلى علامات وإلى شبه بينهم، والتعرف على نسب المولـــود بـــالنظر إلى أعضاء جسمه وأعضاء والده، وهذا كان شائعًا في الجاهلية، لكن نهى عنـــه الإســـلام... انظر: علم القيافة – ويكيبيديا

تتحدث إلى كل من دخل إلى الغرفة –يظهر بذلك أنها امرأة اجتماعية– سلم عليها إبراهيمُ وسألها عن حالتها الصحية... فشرعت تحكي التفاصيل كما لو أنها تقرؤها من صحيفة.. قالت سبب وجودها هنا هو الألم، وعانت كثيرًا معه وسببه أمر بسيط، "ولكن التغافل أوصلني إلى هذه الحالة"، تقول مِّي فاطْنة أنها ذهبت في يوم من الأيام إلى المستشفى العمومي من أجل حقنة دوائية، لكن التي نفذت هذه الإبرة الدوائية أخطأت.. ومع مرور الأيام تحجَّر مكانها، ولم تكن في البداية تحس بأيِّ ألم، لكن مع مرور الأيام.. والشهور.. والسنين.. أصبحت متحجره أكثر وتحس بالألم.

أخبرت أولادها بذلك، وكلٌّ يسوِّف بالعلاج، إلا أن الذي يحس بالألم هو وحده من يعرف قدره ودرجته..

لذلك اضطرت في النهاية بما لديها من نقود أن تجري العملية بمساعدة ابنتها البارة، لأن أولادها غير مهتمين بها.. ويظهر ذلك جليًّا من هذا المشهد؛ لما سمع أولادها بأن والدهم في المصحة..

فزعوا إلى المستشفى، لكنهم عندما دخلوا على أمهم دخلوا بكل برود، سلموا عليها عن بُعد وكأنها مريضة بسل أو داء الكلب أو أن بها جربًا معديًا، أو قُل على أقل تقدير: كأي إنسان آخر..

ثم جلسوا هناك في الكراسي، في حين أن إبراهيم وزوجته عندما دخلا إلى الغرفة اقتربا منها وسلما عليها وسألاها عن حالتها الصحية، واستأنست بهما أكثر من استئناسها بأولادها..

ما جمعته من مال أرادت أن تقتلع به هذا الألم من جذوره لترتاح... تعايشت مع الألم ما يكفي من الزمن..

أنزَلَتِ الممرِّضة زوجة إبراهيم إلى قاعة العمليات بلباس خاص، واستودعها الله، ودعا معها بنجاح العملية، وعاد إلى القاعة حيث مِّي فاطنة بمعية بنتها في الانتظار..

تجاذب معها أطراف الحديث، فارتاحت إليه واستأنست به...

سألت أسئلة كثيرة لتتعرف عليه أكثر:

من أي منطقه أنت؟ أخبرها أنه من الجبل وهي من الوسط.. هذا ما كنت أظنه.. لم يخيب الله ظني فيكما.. فخلالكما وطيبتكما تدل على ذلك، أنتما على طينة نقية تحبون الخير.. تألفون وتُؤلفون.. نِعْمَ النَّاس أنتم في الجبل.. أهل خير وكرم.

اطمأنت روحها لهذه الجلسة، فسردت حكاياتها مع أبنائها وزوجاتهن، وأنهن طردنها من بيت أولادها، فاضطرت أن تعيش مع إحدى بناتها المتزوجات، وحظيت بدفء أحسن مما كانت عليه..

حان دورها الآن للنزول إلى قاعة العمليات.. كانت خائفة جدًّا، بدأت تستعطف إبراهيم كما يفعل الطفل الصغير عندما تسوقه أمه ليستحم، ثم قالت: دعواتك بُني، فقد أعيش أو لا أعيش!

رفع الرجل أكُفَّ الضراعة سائلًا المولى -عز وجل- لها نجاح العملية واستئصال الورم..

بعد ساعات أجرت العملية... لكنها عندما استفاقت وجدت ساقها ميتة.. فأُصيبت بهلع وخوف شديدين.. جاء الطبيب الجرّاح طمأنها وقال لها أنها مسألة وقت ليس إلا، وكل شيء سيكون بخير.. سكنت وسكن الألم، وعادت الدماء تجري في عروقها..

عادت زوجة إبراهيم إلى قاعة خاصة، وأمِّي فاطْنة في قاعة أخرى، لكن القليل الذي حدث بينهما جعل كل طرف لا يأكل طعامًا إلا بإشراك الآخر.. وكل واحد يسأل عن الحال الصحية للآخر..

أُخِذَ من المريضتين عينات للتحاليل، وبعد أسبوع جاء إبراهيم ليأخذ النتيجة، فإذا به يُفاجأ بالسيدة وبنتها في قاعة الانتظار لنفس

الغرض.. تسلم إبراهيم النتيجة أنها سلبية، حمد الله وشكرَه، ثم انتظر دور "مِّي فاطنة"، خرج الطبيب يحمل الظرف في يده، رمق الحاضرين ببصره، ثم ناداها باسمها، قامت إليه بنتها لتسلُّمِ الظرف؛ لكن الطبيب أراد أن يتأكد من علاقة القرابة بينهما..

دخل معها إلى إحدى قاعات الفحص، ثم أخبرها بالخبر الصاعقة: "التحاليل إيجابية، لا أخفيك سرًّا، إنه ورم سرطاني غير حميد..!"

جمدت في مكانها، ثم تصنعت الابتسامة؛ لأن أمها كانت تراقبها عن كثب.. قالت الأم: "ماذا هناك؟" وكأنها قرأت المشهد وحللت مضامينه.. قالت البنت: لا شيء أمي، الحمد لله.. التحاليل سليمة. قالتها والألم يعصر منها الفؤاد على أمها المسكينة، فإن رحلت عنها فستكون وحيدة.. طريدة.. مهانة..

سقطت الدموع من عينيها كحبات البرد.. استدارت عن أمها ثم مسحت خديها بخمارها.. قصدها إبراهيم، استفسر.. تعرف على الوضع ثم قال: "لاحول ولا قوة إلا بالله.. اللهم كن معها يا رب واشفها أنت الشافي.."

سألها كيف كانت المرأة الأسبوع الماضي، فأخبرته أن الجرح لم يندمل بعد، وما يزال يسيل قيحًا ويترف دمًا..!

"السرطان" قد انتشر في جسدها وأضعف مناعتها.. توجه إبـــراهيم إلى السيدة مواسيًا ومسلِّيًا ومعزِّيًا.. مستلهمًا ذلـــك مـــن قـــول الشاعر:

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسلِّيك أو يتوجع[1]

بعد ثلاثة أشهر من العلاج الكيميائي والأشعة تـــدهورت حالتهـــا الصحية.. وفارقت الحياة مجيبة داعي الله.

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْـــأَرْضِ.. ﴾ ســـورة الأحقاف، من الآية 32.

الموتُ بابٌ وكل الناس داخلُه

والموت كأسٌ وكل الناس شاربه

صبرت على آلامها والأمل يحدوها للشفاء، لكن قُدْرة الله فوق كل شيء.

[1] البيت لبشار بن برد.

ومن عجائب هذه المرأة القوية أنها كانت تحتضر وكانت تسأل عن إبراهيم وزوجته: "كيف حالهما؟ إنهما طيبان، وددت لو كانا عندي هنا..." حتى فاضت روحها، رحمها الله رحمة لا تنقطع، وأسكنها جنة الفردوس الأعلى.

القصة الخامسة

أب مراكشي.. لقاء في المستشفى..

في صالة الانتظار والعيون تحدِّق نحو ممرضة تحمل في قبضتها ملفات المرضى.. يجلس الناس متهيئين لتلبية النداء عندما يحين دورهم، جلس المختار إلى جانب زوجته راضية ينتظران دورهما.. دخل رجل ستيني ضعيف البنية يُهادى[1] بين شابين، يجر قدميه وقد أنهكه المرض إنهاكا على مستوى الجسد؛ رعشة قوية، يكاد رأسه لا يستقر على وضع، وفواق يتكرر مرات كثيرة في الدقيقة الواحدة بدون توقف.. أكيد أن وراء كل هذا مرضًا شديدًا، ولكنه لم يصل إلى قلبه.. ففيه صفة من النبي أيوب الصابر المحتسب عليه الصلاة والسلام..

لسانه يلهج بالذكر والدعاء.. وفي لحظات يسيرة من جلوسه على الكرسي استأنس بالسيد المختار.. فالأرواح جنود مجندة، فما

---

[1] يُهادى أي يمشي بينهما معتمدًا عليهما؛ يمسكان جانبيه بعضديه يعتمد عليهما. قال ابن منظور في لسان العرب: يهادي بين رجلين... معناه كان يمشي بينهما يعتمد عليهما من ضعفه وتمايله. لسان العرب الجذر: ه د ي.

تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وهذا يعني أن الأجساد إذا تلاقت في الدنيا ائتلفت واختلفت بحسب ما خُلقت عليه، فيميل الأخيار إلى الأخيار، والأشرار إلى الأشرار[1].

خرج المختار من القاعة لإجراء مكالمة هاتفية، فبدأ سي محمد يرمقه ببصره ويصارع رأسه المتثاقل ليسير خلفه ببصره حتى خرج من الباب المفتوح على مصراعيه.. وعاد إلى وضعه السابق، فأومأ برأسه نحو زوجة المختار "راضية" أن ضعي شيئًا على كرسي زوجك حتى لا يجلس فيه أحد.

ما هي إلا لحظات حتى عاد المختار إلى مكانه فأكمل مع جليسه الحديث.. إلى درجة البوح بسر مرضه.. قال: "شربت في المطعم المجاور لمقر عملي كأس عصير، فأحسست منذ تلك اللحظة بألم لا يقاوَم على مستوى المعدة.. حسدًا يكون قد وضع له شيئًا مسمومًا في الكأس، وأردف قائلًا:" أنا أعرفه حق المعرفة، وكما يُقال باللِّسان الدارج: "جارْكْ فالْحَرْفَة عْدوكْ"

اعتدى عليَّ، فحسبي الله ونعم الوكيل!

---

[1] إشارة إلى حديث النبي ﷺ الذي رواه أبو هريرة وأخرجه الإمام مسلم، كتاب البر والصلة، رقم: 2638 بشرح الإمام النووي.

حان دور سي محمد رفقة ابنيه أن يقوما إلى قاعة الفحص بالتصوير المقطعي –السكانير– بينما ظل المختار مع زوجته ينتظران حتى فرغت القاعة؛ فاستفسرا فإذا بهما جاءا قبل الموعد بيوم واحد.. كأن القدر ساقهما ليتعرفا على هذا الرجل قبل الرحيل، ويتبادلوا الدعوات بالشفاء والصبر على البلاء..!

كان الخبر كالصاعقة من ابن سي محمد: أخي المختار خرجنا للتو من "السكانير" فكانت النتيجة سلبية.. للأسف!

.. أبي مصاب بالسرطان على مستوى الكبد والرئة.. حوقل المختار وتضرع إلى الله أن يخفف عنه ما نزل..

تتبع حالته على الهاتف، لطالما كان يطلب ويستعطف ابنه ألا يقبل بالعلاج الكيميائي "الشيميو"..

فلا يريده أن يتألم أكثر.. وهو رجل بلغ من الكبر عتيًّا.. وضاعف المرض عمره نصفين، وكان ابنه يقول: "يكون خير.. يكون خير.." يرضي بها السائل؛ لكنه مصممٌ العزم على العلاج، حتى ولو كان الدواء بروتوكولًا بالأشعة.. فقط يبحث عن العلاج بأي ثمن.

هذا يفعله فقط من عرف مقام الوالدين ومن عاش تحت جناحيهما الدافئين.. ويستوصي بهما خيرًا كما أمر القرآن الكريم: ﴿وَاخْفِضْ

لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24)﴾ سورة الإسراء، الآية 24.

مضى وقت غير يسير، وسي محمد بين البيت والمستشفى.. يذهب به ابنه ليستفيد من حصة العلاج.. لكن الطبيب المعالج يرفض ذلك بحجة ضعف مناعته.. ظلت حالته كذلك زمنًا، وكان آخر عهده بالمستشفى لما أحس بتعب شديد واختناق على مستوى التنفس، استفاد من حصة التنفس الاصطناعي، فلما تحسنت حالته أعاده ابنه إلى البيت منتظرًا الفرج من الله تعالى.

وفي صبيحة أحد الأيام قبل أن يغادر ابنه البيت للعمل قال له: أبي، هل لك عندي حاجة؟ تمتم وهو متعب: "الله يرضى عليك يا ولدي".

تدهورت حالته فبدأ يعالج سكرات الموت.. حمله ابنه على جناح السرعة إلى المستشفى، لكن اختارته السماء ضيفًا عزيزًا.. فهل يرفض ضيافة باريها؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

خاتمة

هذه القصص تبعث في الإنسان روح الرضا بالقضاء والقدر، ويتشبه المرء فيها بالكرام.

وإن التشبه بهم فلاحٌ وصلاحٌ.. لا يخيب من جعل النبي أيوب – عليه السلام– قدوته، في الصحة والمرض، في الغنى والعيلة، فإن فقدت نعمة فاحمد الله مثلهم على النعم الأخرى.

فمن كانت هذه خلاله عاش طيب القلب مرتاحًا، ومات سليم اللسان لأمر الله منصاعًا، فالكيس في هذا المقام من أخذ العبرة من هؤلاء "أصحاب الابتلاء"، وطلب من الله العفو وحسن الخاتمة.

نهاية.. البداية.. وبداية النهاية

أسرار الألم: قصص واقعية في قالب أدبي يستهوي القارئ، ليستمتع بالأحداث، ويتعظ ويعتبر.. ينمي لديه القناعة من هذه الحياة الدنية، وتهفو نفسه للحياة الحقيقة هناك في الجنان.. ا.هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء 6

تقديم 9

سر الألم مع النبي" أيوب" عليه السلام: 15

الرجل المحبوب.. والصراع مع الألم..... 19

فاطمة.. امرأة من عيار ثقيل.. 28

حفيظة، الروح الطاهرة.. 33

الرشيد عبد الله.. الشاب الطيب.. 39

لقاء في المصحة.. أمّي فاطْنة.. 44

أب مراكشي.. لقاء في المستشفى. 51

خاتمة..... 55

أحمد بازز من مواليد 1976/01/01بمريرت إقليم خنيفرة
أستاذ التعليم الإبتدائي: بمدينة العطاوية - إقليم قلعة السراغنة
حاصل على الإجازة في الدراسات الإسلامية.
حاصل على تزكية في الخطابة.
مستشار تربوي سابق في برنامج محو الأمية بالمساجد "الاندراغوجيا".

من إنتاجاته:
كتاب القربان في الأديان.
باكورة التين: من الكتاب المسطور إلى الكون المنظور
إسهامات متعددة في مواقع ومجلات.

أسرار الألم

أضع بين يديك أيها القارئ مجموعة قصصية ستجعلك في الطريق الصحيح -إن شاء الله- لتتعلم كيف لا تتألم..

إن نقل الواقع بلغة الأدب أفضل بكثير من نقل الخيال بلغة الواقع؛ فكون القصة من أحسن القصص يرجع الى أمرين؛ التزام الواقعية، وتوخي العظة والعبرة.

قصة النبي أيوب مرجع أصيل لحمل المريض على الصبر والتزام الرضى..

إن الإحساس بالآخرين لن يتأتى لك إلا اذا كنت معهم.. إلى جانبهم تشهدهم في مواقف مختلفة، فتفرح لأفراحهم، وتتأثر لأحزانهم. وعندما ترحل معهم في رحلة المرض تقتنع أنها تجربة تضعك أمام الأمر الواقع.. فيصبح الألم مألوفا لديك فتعرف ما معنى أن تعود مريضا وتؤنسه قليلا ..

الطيبون من يحتسبوا ألم المرض ويصبروا.. فجوائزهم عند بارئهم بغير حساب ..

الطيبون يرحلون سراعا، نفتقدهم، نحس بفراقهم .. ويتركون فراغا كبيرا في حياتنا، ولقد صدق الرسول الكريم حين قال: "مستريح ومُستراح منه..."

مستريحٌ من تعب الحياة الدنيا وآلامها.. رغم أنه يترك خلفه حزنا عميقا لدى أقربائه وأصدقائه...

أما المستراح منه، فرمز لمن نكّدَ حياة الآخرين وأساء اليهم واعتدى عليهم فيستريحون لفراقه العَبْدَ المُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِن نَصَبِ الدُّنْيَا وأَذَاهَا إلى رَحْمَةِ اللهِ، والعَبْدَ الفَاجِرَ يَسْتَرِيحُ منه العِبَادُ والبِلَادُ، والشَّجَرُ والدَّوَابُّ". الموطأ /الرقائق حديث رقم 5435.

قصص أبطالها أعدهم على رؤوس الأصابع .. بعضهم من قرابتي والبعض من صداقتي والبقية ساقهم القدر في طريقي..

bassmabook
00212771814934
bassmabook@gmail.com